

كَلِمَةٌ

يقول مولانا جلال الدين الرومي: (الكلمة كالصورة والمعنى كالروح)!

هذه الحياة المتلاطمة تسير بطريقة عجيبة بعض الشيء.

كل ما فيها من تعقيد وتضاد وغرابة تحرّكه خفيةً أصابع صغيرة جداً

ضئيلة جداً

لا نكاد نهتم بماهيتها بشكل كبير لكنها تصنع فارقاً حقيقياً.

هل تخيلت معي يوماً ما هي حياتنا من دون الكلمة؟

هذه الألفاظ التي نتلفظ بها بلساننا ونعبّر عنها لمن حولنا كيف ستسير الحياة من دون لفظ،
كلمة، حرف؟!

حسناً ماذا عنك أنت في استخدامك لها: هل فكرت يوماً ما الذي سيحصل لك إن فقدت
القدرة عليها وسط الزحام من الألفاظ التي لا تستطيع البشرية العيش بدونها؟!

الكلمة مسألة وجودية تتعلق بالحياة بشكل مباشر ليس هناك ما يدعوا لتعداد المواضع التي
نستخدم فيها الكلمة إذ الحياة كلمة: كل حرف فيها يعبر عن أمر ما يجب التفكير به، وعندها
تولد الأفعال والتصرفات وقد تكون الكلمة هي بذاتها تصرف يغيّر مسار الواقعة!

قام الصديق بكلمته بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوقف الشقاق والذعر الذي
حصل للمسلمين بعد سماع موته عليه السلام: (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات
ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت). تلك الكلمة التي أسكنت الناس وفصلت الحكم في
المسألة وأعادت الناس إلى عقولها وجمعتهم بعد شتات. تلك الكلمة هي التي تنقذ إذ قد تودي
غيرها المهالك!

يقول الله تعالى في سياق منّته ونعمته على عبده المستكبر: (ألم نجعل له عينين ولساناً
وشفتين وهدينا النجدين) أتساءل لماذا اختار الله سبحانه وتعالى هذه النعم بالتحديد
ليوردها في هذا السياق؟ "البصر، الكلام، الهداية التي تكون بالعقل" قد يكون إيراد هذه

النعم لأنها أساس في تكوين شخصية الإنسان أمسكتبُر ظالم لنفسه أم مهتدٍ عادل! فبعد ذكر حال المستكبر حَسَنَ إيرادها لمناسبتها لحاله فالإنسان إذا أبصر ما في الحياة من زينة أُعجِبَ وافتُتِنَ بها فتكون وسيلته الأولى للتعبير عنها بالكلام الذي سيحدد حمده أو نكرانه لربه وبعدها سيكون سلوك المسلك والطريق بناءً على ذلك لأي الطريقتين طريق الخير أو الشر. فانظر كيف كان الكلام وسيلة سابقة لسلوك المسالك الفكرية للإنسان في حياته! ثم أنه ذكر اللسان وذكر أيضاً الشفتين وهما وسيئلتان لأمرٍ واحد وهو الكلام! قد يكون ذلك إلماحاً حول تكامل العملية اللفظية فاللسان طلق العنان في ألفاظه فقد يسب ويشتتم ويتكلم فيما لا يعني ويكثر من الكلام في غير نفع؛ والقيل والقال منهيٌّ عنه، والصمت محمود وكما جاء عن لقمان الحكيم: (الصمت حكمة وقليل فاعله). فذكرُ هبة اللسان والشفيتين هي من هذا المعنى التكاملي فالله أعطى لك اللسان للكلام والتحدث وأعطى لك الشفتين التي هي وسيلة للصمت أيضاً وَمَنَع اللسان عن الانطلاق فيما لا ينفع؛ فهو بذلك يمعن في إيضاح النعمة والمنة منه سبحانه على عبده فقد أعطاه النعمة كاملة متكاملة وجعلها وسيلةً بإرادته عليه استخدامها في وقتها وفيما ينفع!

خرج حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي في سفرٍ فقطع طريقه لصوص يريدون سرقة وكان مما أخذوا محفظة لأبي حامد فيها كل ما أخذه عن الأشياخ من العلم فأخذ أبو حامد يطلب من السارق أن يأخذ كل ما يريد على أن يعيد له هذه المحفظة! فلما سأله اللص عن ذلك؟ قال أن فيما كل العلم الذي أخذته عن أهله فضحك اللص قائلاً: كيف تزعم أنك أخذت العلم وهو هنا سيذهب إن ذهبت؟ ثم أعاد له محفظته. فقال أبو حامد والله إنه لمُستنطق أنطقه الله. فتنبّه الإمام لما قاله اللص فعمد إلى العلم الذي عنده فحفظه عن ظهر قلب!

هذا اللص استنطقه الله فحذار أن يستنطقك الشيطان!

الحب كلمة تبني بها العلاقات وتُتَبَّت بها أبنيتها، فلم يكن الحب مُشاعاً لولا كلمة أُحِبُّك!

استثقال الكلمة الجميلة هو مرض يجب علاجه على الفور فالحياة بدون العبارة اللطيفة والكلمة الجميلة هي عبارة عن حياة ثقيلة وقد تكون ضيِّقة وكئيبة فالحياة كما قلنا كلمة، والكلمة إن لم تكن جميلة أو لطيفة كانت قبيحة ومستثقلة فعند ذلك تكون الحياة كذلك!

لم يستثقل محمد صلى الله عليه وسلم كلمة أحبك لمعاذ ولم يتردد في فدائه لسعد "فداك أبي وأمي". ولم يرضَ أن يُنادى أصحابه إلا بأجمل الأسماء وأحب الأسماء إليهم فالصعب لا ينادى صعباً بل يغيّر إلى سهل تفاعلاً واستبشاراً؛ وعمرو الذي للتوّ أسلم يُرَجَّبُ به بكنيته التي يحبها "مرحباً بأبي عبد الله" فالكلمة تصنع، تُغيّر، تهدم، تبني!

كانت عائشة رضي الله عنها إذا أقسمت عند النبي صلى الله عليه وسلم تقول: وربّ محمد، فإذا غضبت منه قالت: وربّ إبراهيم!

كل كلمة تعني شيئاً ولها مدلولها الخاص لذلك لا تقل مستصغراً: "نرى كلها كلمة!"

لماذا تُخبّي كلمة أحبك بين الأضلاع في ظلمة جبّ مُكبّتٍ وتحرر كلمات التوبيخ والاستهزاء وكأن هذه مشاعرك الحقيقية؟

الكلمة الطيبة صدقة، ولماذا صدقة؟ كونها عطاء قد تجد قلباً فقيراً فتُغنيه، وقلباً مليئاً فتوسع أرجاءه! لأنه وفي كل الحالات القلب لا يملُّ من عذب الكلام وجميله.

يقول تعالى: (مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها..)، (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار).

ماذا يعني الثبات والقرار في الكلمة الطيبة؟ قد يكون من الثبات والقرار هو ثبات الود الذي تركه الكلمة الطيبة والأثر الجميل الذي تدعه في النفوس، وقد يكون الثبات الذي هو ضد الاضمحلال والنسيان فالكلمة الطيبة تبقى محفورة في الذاكرة؛ تلك الكلمة التي تصنع فارقاً في حياة الإنسان التي تنتشله من الضيق إلى السعة، ومن الحزن إلى الفرح ومن الشقاء إلى السعادة.

وماذا يعني ذلك الاجتثاث والاضمحلال في الكلمة الخبيثة؟ قد يكون من الاجتثاث هو اجتثاث الود الذي كان في القلوب فربّ كلمة أزالته وداً كان صرحاً شامخاً لأعوام، وربّ كلمة خيّبت آمالاً وأسقطت طموحات! وقد يكون من الاجتثاث اجتثاث مودة قائلها ومكانته بين الناس فصاحب اللسان الشقيّ ممقوتٌ مُبعدٌ مُجتثٌ مضمحلٌّ عن دواوين الناس وفي قلوبهم قبل ذلك!

لقد خاف الصالحون من مغبة اللسان فدخل عمر رضي الله عنه يوماً على أبي بكر أثناء
خلافته فوجده يبكي وهو ممسكٌ بلسانه قائلاً: هذا الذي أوردني المهالك!

أيُّ مهالك أورد اللسان أبا بكر إليها؟! وهو الذي كان يضع في فمه الحجر لألى يجازف في القول
من دون أن يفكر به!

وأيُّ مهالك أوردنا إليها اللسان بخطئنا وزللنا وسُخف أقوالنا، وتردّدنا لقول الكلمة الجميلة
لمن من نحب ومن هم حولنا حتى أصبح أحدنا أشدُّ ما يندم عليه كلمة طيبة لحبيبٍ رحل ولم
يستطع سماعها. أو تسرّعنا حيال مسائل كان بالإمكان القول الحسن فيها ينهي كل المشكلة!؟

بُنيت العلاقات بكلمة وتصلّح المتخاصمون بكلمة وتنازع آخرون بها، والحرب أولها كلام!

يفترق الزوجان بكلمة كانت زلّةً وتسرعاً غير مدروس كان نتيجته الطلاق والخصام الأبدي،
يتعقد الطفل من تلك الكلمات غير المبالية التي تُداس على مسامعه صباح مساء فيصبح
ضعيف الشخصية مضمّر الإحسان سيء الخلق!

والعشق أيضاً قد يُبنى بكلمة تفتن أكثر مما يفتنه الجمال الذي يُرى؛ وفي السابق قال الشاعر
الأعشى بشار بن بُرد:

يا قومُ أذني لبعض الحي عاشقةٌ والأذن تعشقُ قبل العين أحياناً

مع أن العُشّاق يقللون من قيمة الكلمة أحياناً من جهةٍ مختلفة فهم يرون أن العشق الذي
بداخلهم أعمق وأعظم من أن تبينه أو تثبته كلمة، كما قال بعضهم: التعبير عن الحب يهضم
حق المحبة! وقال الشاعر الشعبي:

الكلام لو كان يعبر عالحنان

كنت قلت إني بحبك من زمان!

لكن في الوقت نفسه لا يجد متنفساً لعشقه غير الكلمة التي يعبر بها عن داخله وهي نفسها قد
تزيد من جذوته وقد تقتله وتمنيه!

كثيراً ما يستصغر الناس قوة اللسان ففي السابق أيضاً تساءل معاذ رضي الله عنه متعجباً
الرسول صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله وهل نحنُ مؤخذون بما نقول؟ فقال عليه السلام

بلغة حازمة: (ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس يوم القيامة على وجوههم – أو قال على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم).

يقول تعالى: (وقولوا للناس حسناً) الكلمة الحسنة لكل الناس لا تقتصر على أحد دون أحد، هي بوابة المحبة بين الشعوب ومفتاح التسامح، ونافذة التعايش السلمي. وهي وسام كذلك للعدل فالكلمة الحسنة هي الأصل ومن ابتدأ بغيرها فقد ظلم!

ما الذي سيضرك إن بادرت بالتعليق على الصور والرسائل والمقاطع بما يحبه صاحب الرسالة؟ جميل، رائع، ما أجملك! في الأخير هو طريق معبّد لاجتثاث العلائق في العلاقات وقد يكون أيضاً طريقاً جديداً لعلاقة جديدة.

لا علاقة أبداً بين الكلمة الخشنة وقوة الشخصية والحزم! بل الكلمة اللطيفة الساحرة الحكيمة المنضبطة عنوان الشخصية الجاذبة: (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك).

ولا علاقة أيضاً بين الكلمة الخشنة والضييق الذي يحصل للإنسان والانزعاج الذي يعتريه، حسناً قد يكون هذا الأمر صعباً عند البعض ولكن دعني أخبرك عن أحوال الناس المتباينة التي تبرهن على أن ضيقك وانزعاجك لا يبرر سوء ألفاظك؛ هناك من الناس من إذا ضاق لا يترك كلمةً قبيحةً إلا قالها وهو بذلك يجد لضيقه مبرراً بيد أن هناك من يختار الصمت في فترات انزعاجه وتعبه، ومنهم من تبقى الكلمة الطيبة على لسانه حتى في فترات ضيقه وشقائه لماذا هذا التباين إذن؟ لأن الكلمة الطيبة عادة ومن اعتاد على القول الحسن لم يستطع أن يختار لنفسه غيره، أو على الأقل لم يسرف في تصرفه بانزعاجه وأنفّه! وقد قال معاوية رضي الله عنه: (عودوا أنفسكم الخير فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: الخير عادة والشّر لاجاجة..).

لا أنسى أبداً ذلك الرجل "الوفّيّ جداً" الذي عرفت شكله واسمه الأول في المدرسة ولم أكن أعرف شيئاً آخر عنه، وجدتُ حسابه على أحد المواقع تابعني أو تابعتته لا أذكر جيداً؛ الذي أذكره أنني أرسلت الرسالة فيعلق بشكل جميل ويشكر بطريقة لبقة وأبادله نفس الشعور بشكل عفوي جداً دون البحث عن علاقة صداقة حقيقية. بعد ذلك كان من أعزّ الأصدقاء وأقربهم بل وأوفاهم فالوفاء كلمة والصداقة كذلك.

مواساة لبعيدٍ عن أهله لمرض والده بكلمات يسيرة فيها من اللطف والعاطفة ما يجبر الكسر ويُبعد الوحشة ويقرب القلوب حتى كان لا ينسى لك معروفك ذاك، مع أنه ليس بذلك القدر من الجهد؛ فقد تكون أرسلت له وأنت مستلقٍ على سريرك بين أهلك وأصحابك ولكنه صادف قلباً خاوياً وحيداً فتمكّن وجمع شتات عقلٍ فرغ من كل تفكير عدا التفكير ببعده الديار وحال الوالدين.

المشكلة التي وقعت فيها يوماً فبكيته حُرقةً وأماً ولم أستطع أن أتصرف بشكل جيّد مع أن المسألة قد تُعالج بأمر ظاهر واضح ولكنه يحتاج إلى نفسية مستقرة وتفكير هادئ، فلم يكن من تلك الكلمات التي أسداها إليّ صديقي والتي قالها تسكيناً للألم في داخلي وعطفاً على الحالة التي مررتُ بها لم يكن منها إلا أن أزالته هم ومسحت عني شقاء التفكير السيء وأعادتي للنقطة الأولى التي يجب أن أنطلق منها. نعم كنتُ أعرفها يقيناً ولكن كنتُ في حالةٍ أحتاج فيها للكلمة التي تعيد ترتيب الموازين فكانت الكلمة / الحياة التي أعادت لي هذه الروح.

ذلك الصديق القديم التي عثرتُ على رقمه بعد مُدة وأنت تعلم أنك قد لا تلتقيه مجدداً أو أنك غير آبهٍ بصداقتكما البسيطة أصلاً، رسالة منك للسؤال عن حاله وأين اتجه وكيف هي حياته؟ تكون كفيلة أن تجعل حياته أجمل وأن ينظرك نظرة جديدة مختلفة وقد يكون في حاجةٍ لتلك الكلمة الوفيّة فكانت كلمتك بمثابة "وفاء" كان يبحث عنه طيلة حياته رغم بعد السنين وتقادم الأيام. فلا تستهين بتلك الرسالة العابرة وذلك السؤال البريء.

الكلمات الخفيفة ليس لخفتها على اللسان ميزان بل لِثِقَلِ المعنى والمقصد: (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحانه الله وبحمده سبحانه الله العظيم).

الله يجيب دعوة المضطر إذا دعاه، والدعاء كلمة: (قال لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له وأنجيناه من الغم). (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين). انظر فالاعتراف والصدق في الرجوع والإنابة بعد الذنب أيضاً كلمة!

ذكر الله كلمة قال عبد الله بن بسر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم: (يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبهت به؟ قال: لا يزال لسانك رطباً بذكر الله).

فتلك الكلمات التي يذكر العبد ربه بها هي بابٌ من أبواب الإسلام الكبرى الجامعة للفضائل والخيرات. وقد يذكر المرء ربه في نفسه تعبدًا وهو في سعةٍ وراحةٍ في حياته وسهولةٍ في لفظه وعمله، فيكون له من الخير أن يذكره الله سبحانه وتعالى في نفسه: (ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي..). وقد يقول المرء كلمةً أخرى لا يلقي لها بالاً أيضاً لكنّها في طريق غير سويّ فتتهوي به في النار سبعين خريفاً. وكلها كلمة!!

الإيمان الذي بالقلب هو قولٌ باللسان أيضاً وهو طريق الاستقامة على الدين: (قل آمنتُ بالله ثم استقم)، (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا..).

دخول الجنة يكون بكلمة التوحيد: (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة). (من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة). واليقين أيضاً كلمة: (قالوا يا موسى: إنا مُدْرِكُونَ قال كلا إن معي ربي سيهدين).

أهمية اللفظ والكلمة والحرف الذي ينطق به الإنسان لا تُحصَر أو تُحصَى، فاللسان بوابة خير وشر، وصدق وكذب، وكفر وإيمان، وحبّ وبغض، وفي آخر المطاف المرء وما يسلك والإيمان بما يختاره لنفسه.

تنطلق المعاني من الكلمات والكلمة التي بلا معنى إن لم تقتلك لا تزيد عمرك!

كتبه:

عبد الله بن صالح الخراز

Whatsapp: 0532659638

Insta: 1431Abdullah

Snap: abood9322